(١٣)

بالله
نعرف الرسول مجاهدين
وبالرسول
نذكر الله مرحومين

حديث الجمعة

١٢ شوال ١٣٨٢ هـ - ٨ مارس ١٩٦٣ م

لا إله إلا الله، الله أكبر، الحمد لله، الملك له، والعزة له، لا شريك له، لا حول ولا قوة إلا بالله، النصر منه، والانتصار به لمن نصر، وهو القاهر بعزته فيمن قهر، والمقهور بحكمته فيمن قهر.

على أساس من هذه الشعارات قامت رسالة العربي، القائم بحمده على ما أقامه، المحمود من المؤمنين حمدا منه على ما قدمه، عرا عنه بربه بجاء الحق وزهق الباطل، وتمت به لكلمة الله قيامتها على قيامها، فقامت قيامة لا إله إلا الله، وانتشرت معرفة الله أكبر، ورفع لواء حمده.

به رضي الخالق عن الخلق، فرضي الخلق عن الخالق، وتعارف العابد إلى المعبود، وقام الموجد بالموجود، فرضي الله عنهم ورضوا عنه، فكانت بذاته مرسلة بارقة من الغيب برقت في السماء الدنيا من الشهادة، أشرقت بها الأرض وسمواتها نورا، عرفته لربها، وآمنته لراعيها، وما لبثت أن تغلبت عليها ظلمات النفس، ظلمة بعد ظلمة، في جحافل من سحب النفوس المتصاعدة من الأرض بظلامها تكاثرت وتكاثرت، وردتها السماء ذات الرجع لمصدرها سماء له حتى عادت الأرض لظلامها، وعاد الناس لظلمهم لأنفسهم، وقد احتجبت عنهم سماء رحمتهم بسماء صنيعهم، قاموا في الأرض شيعا وأحزابا، وفرقا ومعالم وأسبابا، في صراع مميت على ما خلق لهم، غافلين متناسين لما خلقوا له، فلا الله في أنفسهم يرعون، ولا في قولهم يذكرون، ولا في أوليائهم يطلبون، ولا في الطغاة يكفرون، ولا في أعلام وجهه يستقبلون، فلا بقبلته يطوفون، ولا الصلاة بها يقيمون، ولا للحق أقرب إليهم من حبل الوريد يتقون فيَسجدون أو يُسجدون، ويعبدون أنفسهم فيعبدون، وإذا قيل لهم لا تفسدوا في أرض

أنفسكم وقلوبكم قالوا إنما نحن المصلحون، وهم المفسدون ولكن لا يشعرون، فبالجهل يقومون، وبالجهل يؤمنون، وحجاب الغفلة لا يرفعون ولا يجتهدون، ولا لرفعه من الرحمة يتعرضون، وكيف يفعلون وهم لا يعلمون؟ وكيف يعلمون وهم للحياة لا يطلبون؟ وكيف يطلبون وهم إلى قلوبهم لا يتجهون؟

ليس من العيب في شيء أن يكون الإنسان جاهلا، ضالا، حائرا، قلقا، ولكن العيب كل العيب أن يكون هذا حاله ولا يدرك، ولو أدرك لطلب مآله إلى غير ما هو فيه، فيحاول أن يخرج من الظلام إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن القطيعة إلى الوصلة. والأدهى والأمر أنه إذا ما نُبه إلى حاله ليصلح له مآله، وتتغير في حاضره أحواله، أبى ونفر، واستعلى واستكبر، راضيا بالجهل بوصف العلم، راضيا بالقطيعة بوصف الوصال، راضيا بالكفر بوصف الإيمان، راضيا بالمخالفة بوصف الإسلام، راضيا بالمعاندة بوصف الإيمان.

لقد أصبح هذا هو حال أهل هذه الأرض، أيا ما كان دينهم، أو نبيهم، أو كتابهم، أو إمامهم، أو أولهم، أو آدمهم. يجعلون من عرض الدنيا أهدافهم، والدنيا كما وصفها لهم إنسان فطرتهم، ورسول عقيدتهم، وإمام نهضتهم، وآدم حقهم، ووجه ربهم، ويد إلههم، وحوض محييهم، وشمس وجودهم، وعلم الغيب بينهم من أنفسهم.. (الدنيا قذرة قذر ما فيها، عدا ذكر الله وما والاه)[1]، (الدنيا جيفة وطلابها كلاب)[2]، فلاكت ألسنتهم باسم الله، وبين جوانحهم لا ذكر له، ولا قيام له، ولا وجود له، وهو الذي أعلمهم عنه في إعلامهم عنهم، قائما على كل نفس، من ورائها بإحاطته، أقرب إليها من حبل الوريد، معها أينما كانت، كانوا به وجوها له وقياما له، فمن يكون الله، ومن يكونوا هم، وما تكون وحدانية الله عندهم!

ينشدون عدلا، وينشدون حرية، وينشدون سلاما، وينشدون للبشرية اجتماعا وللقومية انقطاعا، وللعروبة وحدة، وينشدون في الحياة مشاركة، بألفاظ استوردوها، وما عن قلوب بإيمان نطقوها، وما استوردها الغرب إلا من الشرق يوما، وما حاولها إلا فيضا من رسول الفطرة دوما، وما عرفها الشرق أو الغرب حية قائمة إلا فيمن عرا بها، يوم قال لهم ربهم على لسان رسوله إليهم، وإمامهم إليه.. لا إكراه في الدين.. تبين الرشد من الغي.. من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.. وما أنت عليهم بوكيل.. إن الله قائم على كل نفس بما كسبت.. لا شرف لعربي على أعجمي إلا بالتقوى...

الناس جميعا أمتك يا سيدي يا رسول الله، {وما أرسلناك إلا كافة للناس}[3]، والأرض جميعا قبضتك يا حبيب الله، جعلت لك مسجدا وطهورا، زويت لك في حقيقة ملكك وفي حقيقة أمرك،

وفي حقيقة دولتك، يا أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلون، اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون.

إن دولة الإسلام التي أقامها الله بمحمد.. إن دولة الإسلام التي جعل الله فيها الملك لمحمد قائما عليه، إنما هي دولة تشمل فيما تشمل الأرض وأهلها، أوطانها، وملوكها، وأممها، استقامت أو انحرفت، قامت بالحق أو قامت بالباطل، تصارع فيها الحق والباطل في نظر الناظرين، أو تواءما في حركتهما في نظر العارفين. فبادل صاحب الملك والأمر عبدا لربه الأيام بين الناس، متخلقا بأخلاق ربه ومولاه، فكان للباطل جولة فيها انتصر يوم توانى أهل الحق عن القيام بالحق، فكان الباطل صوت عذابهم، ونداء ربهم لاستقامتهم، فإذا ما استيقظوا ولو فئة قليلة لبت نداء الحق ولم تخدعها فتنة الشهوات، ولم تأبه لسياط الباطل، فتألفت القلوب منها تؤلفها يد قدرته محيطة منبسطة تجمعا على وجه طلعته في عباد الرحمن، يمشون على الأرض بعيدا عن الطغيان والطغاة، متحررين من الجهلاء والجهل، يتغابون أمام الأغبياء، ويتجاهلون أمام الجهلاء، ويظهرون بالحكمة عند العلماء، ويسألون ربهم الهداية للأمراء، فتتألف القلوب حولهم، ويطاف البيت في معناهم، ويستقبلون بالمحبة في الصلاة صلة بالرب من الإله، فيسجد الناس بحق لحق للحق لله، يعرفون قبلته، ويطوفون بيته، ويشهدون وجهه، بلطيفه في أبصارهم وبصائرهم، يلحقهم بنوره، فتشرق الأرض بنور ربها على ما هو قائم لا يغيب، متواجد من أزل، متجدد بوجهه في أبد، قائم في دوام، فتغلب الفئة القليلة الفئة الكبيرة بنورها يعم وينتشر، فتحيا القلوب وتزدهر، وتزكو النفوس وتزدجر.

هكذا جعل الله النور لعباده، يمشون به في الناس، فتشرق أرض القلوب بنور ربها، ويقدر الله حق قدره، ويدخل الناس في حصن لا إله إلا الله، قائما لا يغيب، أبوابه مفتحة لا تغلق، فيعرفون الله في أنفسهم، يعرفونهم وجه الله الذي يطلبون يوم تنعكس بصائرهم وأبصارهم إلى داخلهم ونفوسهم، فتتلاقى عقولهم مع مواجيدهم وحبهم في بيوته من قلوبهم، وفي وجوهه من رؤوسهم وذواتهم، وتحرر الرقاب بانطلاق عقولهم من عقالها، وينتهي أمر الجزاء والعقاب، وتعلم النفس ما قدمت وأخرت، تنطلق في دارها من السموات والأرض، تعرف حريتها، تعرف ديموقراطيتها إن شئتم إلا ديمقراطيتها، تعرف أن كل شيء خلق من أجلها، وخلق لها، تعرف اشتراكيتها إن صممتم على لفظ اشتراكيتها في ملكيتها لما خلق لها يوم تعرف مالكها ومن خلقت له.

إن هذه الألفاظ المستعملة منا للتعريف بالحقيقة قاصرة عن أداء المعنى الذي أشار الله إليه في كتابه، أو على لسان نبيه، إن كل شيء خلق من أجلك، لا تحرم من شيء منه.. إن كل شيء خلق لك لا يشاركك فيه مشارك.. إن الوجود ما تواجد إلا لكل موجود فيه، هو سيد فيه، مالك له، ما

عرف ربه، ما كبر مولاه، ما شهد أنه ما شهد نفسه لا إله إلا الله، والله أكبر، العدل وصفه، والدنيا ملكه، والآخرة حقه، والله مولاه، لا بل مولاه ونفسه وعبده، يسأله في ملح طعامه، ويفتقر إليه في كل قيامه، لا يعتز بغيره وإن كانت نفسه، فأعدى عدوه نفسه التي بين جنبيه، وأحب أحبابه ربه الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد. فما تكون الأهداف عند العرب إلا أن يكون الله هو المقصود الأول في كل هدف؟ وأي هدف بعد الله؟ أمن القشور يجعل المؤمن هدفه؟ أمن المادة يجعل المؤمن شرفه؟ من قال لكم إن المادة ليست في ملككم، والمادة ليست في عدلكم؟ من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هي للذين آمنوا خالصة في الحياة الدنيا يوم القيامة، إنما هي خالصة للناس ما أقاموا الحق وشرفوا به، وما أقاموا الذكر فذُكروا به، فكان الذكر قيامهم، وإرادة الله بعدله ورحمته قوامهم، متحررين من مذلة الخدعة بشهوات دنياهم وهي ساعة في دار من دور رحلتهم، فاستقام في الدنيا والآخرة أمرهم، فليس في الدنيا استقامة ما انحرف أمر الأخرى في الناس، وليس في الآخرة كرامة إلا ما كرم أبناء الإنسان بالإنسان، وقد كرَّم الله بني آدم باليقظة إلى معيته لكل نفس بالرحمة والحياة، وقيامه على كل نفس بالحكمة والشهادة، وإلا كانت الدنيا وخيراتها اغتناما أو حرمانا بلاءً وابتلاءً لا عطاءً ولا جزاءً.

إذا لم نجعل من الله ومرضاته، ورضائه، ورضائنا عنه، ورضوان من الله أكبر أهدافنا، فكيف تستقيم الأهداف؟ وإذا لم نجعل منه علة ائتلافنا، فكيف يقوم الإيلاف؟ لن تكون للعرب وحدة، ولا في الدنيا سلامة، ولا في الآخرة كرامة، ما لم يرَ العرب في قديم أمرهم كيف كرموا وكيف شرفوا. هل شرفوا بأبي سفيان رأس الأمويين؟ هل شرفوا بالعباس بن عبد المطلب رأس العباسيين؟ هل شرفوا بعنتر عبس؟ هل شرفوا بأبي زيد الهلالي؟ هل شرفوا بمعدي كرب؟ هل شرفوا بخالد المخزومي؟ بمن شرفوا!!؟ بسيد الثقلين، بإمام الدارين، بملك المملكتين، بوجه الله للكونين، بالذات علما على الأقدس لذات الإنسان، لذات الرحمن، وبالروح علما على الأعظم، لروح الإحسان.

ها هو الروح بملئه والأرواح العظيمة بجمعها، والروح الأعظم في الميدان، يهز الأرض، ويرج البنيان، فهل استيقظ أدعياء الإسلام وعنوان الإسلام؟ هل استجاب.. هل استقبل من ينسبون أنفسهم لكتاب ما لمسوه ينسبونه لله ما عرفوه؟ وكيف يعرفونه أو يتلقونه من رسول الله، ينكرونه يتلوه في الناس على مكث وهم يجحدونه، وأصابعهم في آذانهم حذر الموت يحذرونه لكيلا يسمعونه، حتى لا يُذهب ظلام نفوسهم هم عليه يحرصون، وبنيان أجداث مواتهم بأجساد مقابرهم لها يتعشقون؟ فلا الله في أنفسهم يرعون، ولا النبي في ضمائرهم يشهدون، ولا قيامه في الناس يطلبون، والناس به يبدلون ويقلبون ويؤمنون. هو كوثر الحياة، به يتواجدون، وبه يبعثون، وبه يحيون، وهم بهم في غفلة

عن الحياة في أنفسهم يعمهون، تبدل جلودهم كلما نضجت ولا يستيقظون، ولا من غفلة يخرجون، فسبحان الله عما يصفون، وتعالى الله عما يشركون، وعز الله على الجاهلين به يحيون وإن كانوا به يقومون. هم حصب جهنم عليهم تحيا، وبهم تشعل، وتزدان أرضها التي يعبدون بالدنيا يعشقون، مبرزة بما يحذرون، وبالسنة لا وعي لها يحذرون، ويعبدون أنفسهم لها مرة ومرة، وطورا وطورا، فيملكها الله رقابهم وأوانيهم، ويجعل منهم زينة لها بذواتهم ومعانيهم، وليتهم لها بصدق يقدسون، ولها بإيمان يسجدون، ولكنهم عليها أيضا بأوهام يستعلون، وملكيتها يدعون، والقدرة عليها لأنفسهم يزعمون، وهم أبناؤها لها عابدون. ولو أنهم على عبادتها قاموا عاكفين، الله في جمالها ناظرين، ورحمته في خيراتها مستقبلين، ومن قسمتها في ابتلائهم مسترحمين، لكانوا من وراء حجاب عابدين، وفي حجاب لله قائمين، حتى يحررهم الله إلى عليين، بما استقاموا عليه من أمر أنفسهم فيها، وجه الله بها يرون، ورحمته منها ينشدون، ولكنهم عليها يستعلون ويستكبرون، وما صَنَعَت من زينتها لرحمتهم واختبارهم بأيديهم يخربون، وأرواح الخلق في استهتار ومجون يزهقون في سبيل أهداف من مادة لا قيمة لها، هم لها طالبون، وأمرها يعشقون. هذا أصبح حال الناس على ما ترون.

فإلى متى؟! إلى متى رسول الله؟ إلى متى وجه الله؟ إلى متى يد الله؟ أما آن لك أن تطأها!؟

سيدي طأها، ما أنزل عليك القرآن لتشقى ونفسك جماع أهلها، وقيام أرضها، ونور حقها، ونار خلقها. إلى متى سيدي رسول الله تترك الفئة القليلة تمسك بالجمار؟ ولا تأمن في الديار؟ ولا تمكن من المزار كأنها في حياة من قفار؟ أين الحضر والأمصار؟ إنك وعدت والحقُ ما وعدت، والأمر ما أقمت، والحياة لمن سويت، والحي من آويت، والعالي من في بيتك أعليت، وباسمك لاسمك دانيت.

سيدي رسول الله وبحار الحياة وسفن النجاة.. جار المستجيرين وأمان الخائفين، وسكينة العارفين، وقائد الطائفين، وإمام المصلين، وحق المستقبلين، أنت لنا كل شيء، على ما عرفنا فعرفناك، وعلى ما آمنا فآمناك.

ها هي نسائم النصر، ها هي أعلام الذكر، نشم ريحها ونستشعر أريجها، فنتخيل معالمها. ها هي الأحداث ترهص لمقدمك، فاجعل بحقك حقيقة، وبربك رسالة وطريقة، فجدد دينك، وبين كتابك، وارفع حجابك، وانشر في الناس قيامك، وأزل من عقولهم غيابك. يا من في النيام يطوف بكعبته، وفي القيام يقوم بقبلته. طأها سيدي ففي وطئك رحمتها وسعادتها...

يا عبد الله.. يا حق الله.. يا من هو الناس بربه ورب الناس، وملك الناس، وإله الناس، برفيقه الأعلى في الله الذي عَرِف وعرَّف.. يا من به ذكرنا الله، وبالله عرفناه رسول الله.. يا من له المرتقى.. يا من له المحيا.. يا من له الممات.. يا من له معانينا في الإنسان، بالإنسان، إلى الإنسان، قياما بالله، وطلبا لله، ولقاءً لله، وسبحا في الله. لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

يا من قام بيننا لا إله إلا الله، فما عرفناه، أقمنا لا إله إلا الله، بقيامك بلا إله إلا الله. يا من قام بيننا الله أكبر، فما قدرناه، قم علينا الله أكبر، حتى نرعاه، وحتى نراه. يا من قام بيننا كلمة الله، وروح الله، ووجه الله، والحق من الله فما تابعناه، أعد بيننا سافرا قيامك، وأسمعنا مرة أخرى كلامك، وادخلنا في كلمتك، لا دينونة، ولا قطيعة، فقد تذكرنا، وعرفنا، وندمنا على ما فعلنا، فلبي باسم الله نداءنا، واظهر بوجه الله لعيوننا وبصائرنا، وامدد يمين الله يمينك لنجدتنا ولبيعتنا. أنت اليوم عندنا أولى بنا من أنفسنا حقا وصدقا، لقد عرفنا ما عنه غفلنا، يا من جعلت للعرب شرفا بكتابك عربيا، وجعلت للعرب شرفا بقيامك عربيا، وجعلت للبشرية شرفا بوجودك إنسانا أبديا، وعبدا أزليا، ووعدتنا بعثا من أزل، في قيام في أبد عنا لا يغيب، تنشق عنك الأرض أول عابدين في دوام، بيتا دائما متجددا بالسلام، تتلو على مكث حكمتك، وتظهر في كل أمة لتُبين لها بلسان قومها فطري شرعتك.

أيها العربي الذي صرت غربيا وشرقيا، روسيا وصينيا، لاتينيا وطليانيا، فرنسيا وألمانيا، إنجليزيا وأمريكيا، في أي صورة ما شاء ركبك، وفي كل أمة بالحق أوجدك، وبكل لسان بالحكمة أنطقك، ما عُرِفَ للناس أنه لا إله إلا الله، على كمالها واستقامتها إلا في معرفتك لا إله إلا الله، وتعريفك لا إله إلا الله، يا لا إله إلا الله.

انتسب إليك فريق من أهل السوء باسم دينك فما أساءوك، ولكن أساؤوا إلى أنفسهم، وما أساؤوا إلى دينك حفظه الله لأهله في أهله، ولكن أساؤوا إلى آخرتهم. وهم يحاولون الإساءة إلى كتابك وما يسيئون إلا إلى حياتهم ومن يتابعهم على سنتهم. وهم يسيئون أو يحاولون الإساءة إلى معنى أمتك من الناس كافة مرسلا ومن المؤمنين بيتا وذاتا، والله راد كيدهم مبطل أمرهم كاشف سترهم.

يا أمة المؤمنين من كل جنس، يا أمة الخالصين من كل رجس، يا أمة المخلصين من كل بيئة، يا أمة العاملين في كل زمان، شرَفُ الأفراد في فردك أنت ما وصلوك، وشرف البيوت في بيتك أنت ما دخلوك، وشرف الجماعات في الاجتماع عليك على ما يجتمع مجتمع عليك يفنى عنه ويبقاك، وشرف الأمم في شرف أمتك، ما عُرِفت أمتك، وما أسفرت أمتك، وما قامت في الناس لك أمة، فكانت الأمم والناس جميعا أمتك.

يا فرد الأفراد، ويا أمة الأمم، ويا حق الحقائق، ويا بحر البحار، ويا نهر الأنهار، ويا ماء السحب، ويا عيون الأرض، ويا جذوة الحياة، ها أنت وربك تدانينا في حاضرنا، على ما أنت دائما به مدان في أزل، باقيا في أبد، ملبيا في قيام، ها هو لك وها هو معك على ما هو لك دائما، وعلى ما هو معك دائما، وعلى ما أنت له ومعه، ها أنت بجديد من أمرك تظهر، ها أنت في الحياة تسفر، ها أنت من الأرض تخرج، ها أنت من السماء إلى الأرض تداني وتعرج، ها أنت من الغيب إلى الشهادة فيها تقيم وفيها تظهر، ها أنت ركب السفن للخلاص والنجاة تعد وتقلع وتسفر، ها أنت في ثوبك الجديد، بل ثيابك تطهر، ها أنت بذاتك بل بأمة ذواتك تنتصر وتظفر، ها أنت مع جندك القديم والجديد، بل بحافلك تقدم وتقهر. من هذا الذي يقوى على صد غزوتك؟ ها أنت بركب رحمتك، وها نحن على ما نحن نظاهر ونصد، ولكن طلائع ركبك تتقدم وتغزو الأرض، تغزو أرض القلوب، إنهم ينشرون الحياة في قاحلها وعالمها، ها هي الحياة تتواجد على الأرض، ها هم الأحياء يتفجرون بالحياة، ها هو كوثرك بالأحياء ومعانيك بالحياة، إنها الحياة، إنها القيامة، هل ينظرون إلا أن يأتي ربك، ها هو ربك، وها هو ركبك، فهل من مستيقظ؟

اللهم اجعلنا من محبيك، ولا تجعلنا من المنكرين عليك في أنفسنا وفيما حولنا، وقد علمتنا وأعلمتنا أينما نولي فثم وجه الله في أنفسنا ولينا، فثم وجه الله وفيما حولنا نظرنا، فثم وجه الله لا تنقطع في أنفسنا آياته، ولا حولنا معجزاته، لا إله غيره ولا معبود سواه.

اللهم أنزل سكينتك على قلوبنا، والسلم والسلام على أرضنا، وأحيِ موات قلوبنا بروحك، وأنر عقولنا بنورك، وزكي نفوسنا بجذوة الحياة منك، وقوم جوارحنا بحكمتك، وأصلح نفوسنا ومجتمعاتنا برحمتك، وأقم بيننا منا فينا عدلك حتى لا يطغى بعضنا على البعض فيذهب ديننا، وترهق وتزهق أرواحنا، بالطغاة منا متخلفين عن ركب الحياة وإرادة الناس إرادة لك كما علمنا، لا إله غيرك ولا معبود سواك. اللهم ولِ أمورنا خيارنا ولا تولِ أمورنا شرارنا، وخذ بنواصينا إلى الخير حكاما ومحكومين روادا ومرودين، لا إله إلا أنت سبحانك إنا كنا من الظالمين.

أضواء على الطريق

(لقد كافحت لكي أجمعكم ولأجعلكم معا أكثر قربا في حلقات الحب. لقد حاولت لأعلمكم قوانين مملكة أعلى وحياة أعظم. أنا لم أشجع أبدا إدانة أي فرد أو أحض عليها. لقد حاولت أن أفسر الحب في أعلى درجة له. وخاطبت دائما منطقكم وذكاءكم قصرا على أن الحقائق التي نعلمكم إياها قادرة على الامتحان العسير والتمحيص العقلي).

من هدي السيد (سيلفربرش)

مصادر التوثيق والتحقيق

١ حديث شريف: "إنَّ الدُّنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلَّا ذكرُ اللهِ، وما والاه، وعالمٌ أو مُتعلِّمٌ". رواه الترمذي وابن ماجه..

٢ من حديث شريف ذكره السيوطي بلفظ: "الدنيا جيفة، والناس كلابها". وأخرج الديلمي عن عليّ مرفوعاً: أوحى الله إلى داود: يا داود، مثل الدنيا كمثل جيفة جمعت عليها الكلاب يجرونها، أفتحب أن تكون مثلهم فتجرها معهم"؟ أيضا: "قال علي بن أبي طالب الدنيا جيفة، فمن أرادها فليصبر على مخالطة الكلاب." المصدر: الموضوعات للصغاني. وعند أبي نعيم عن يوسف ابن أسباط.

٣ سورة سبأ - ٢٨